مُقَدِّمَة

إنَّ تداخل المعارف مثل اختلاط ماء النَّهر الحلو وثبج البحر المالح، أو تداخل أمواج بحرين بينهما برزخ لا يبغيان، وعندما تتداخل المعارف تفرز إشكاليات متنوعة، لارتباط ذلك التداخل بقيم وتقاليد مختلفة؛ ذلك أنَّ الوعاء اللغوي الثقافي يبقىٰ دائمًا حاجزًا سميكًا في وجه كل تداخل، مما يتطلب جهودًا كبيرة، تصورًا ومنهجًا؛ لاختراقه، ومدّ جسور التواصل بين العلوم.

هذا التواصل سيكون العنصر الأساسي الذي تدور عليه محاور هذا الكتاب، تواصل اخترنا له مصطلحًا خاصًّا هو «التداخل»، مع الاستعانة ببعض عناصر أسرته المفاهيمية ذات دلالة أخص؛ مثل: «التكامل».

وعليه، يسعىٰ هذا الكتاب إلىٰ دراسة ما ينشأ بين العلوم من تداخل وتفاعل، من منطلق أنَّ التاريخ كان ملتقىٰ للعلوم والمعارف، برغم وجود لحظات قد يضعف فيها الاندماج والتفاعل بين العلوم؛ لأسباب علمية، وأخرىٰ فكرية واجتماعية، ولكن تبقىٰ العلاقات المتبادلة بين العلوم، من خلال ما يتشكل بينها من روابط، وذلك ما سنسعىٰ إلىٰ فهمه واستنباط قوانينه، داخل مجالات معرفية وتداولية متباينة.

وقد دفع بعملية «تداخل المعارف» إلىٰ حد أقصىٰ علماء التداخل ممَّن عرفوا بالموسوعيِّين؛ إذ استطاعوا إدخال علومهم ومفاهيمهم في مجالات غير مجالاتها

الأصلية، واشتغلوا في حقول معرفية مختلفة، وتنقلوا بين تخصصات عدة، وأثبتوا أن الإبداع في العلم أعظم من أن يحصر داخل أنساق مغلقة تدعىٰ «التخصصات»، وهذه التخصصات هي التي ما تزال تشكل معوقًا حقيقيًّا أمام أطروحة «تداخل المعارف» بحكم الواقع المعرفي المعاصر، وتضاعف حجم المعرفة تضاعفًا سريعًا، وتجزئها إلىٰ قطع دقيقة جدًّا، لم يعد ممكنًا للعالم الفرد إلا استيعاب قطع معرفية صغيرة ومحدودة، وإلَّا غرق في محيط المعرفة الكبير، واستغرقته جزئياتها التي لا تنتهي.

ولكن تبقىٰ بنظرنا مبررات الدعوة إلىٰ تداخل المعارف قائمة، وأية محاولة لقطع أسباب هذا التداخل لن تكون سوىٰ مناهضة التاريخ الفعلي للأفكار، وإعاقة الإبداع الإنساني بعامة.

وقد حفزنا للبحث في هذا الموضوع عاملان اثنان؛ أحدهما علمي موضوعي، والآخر فكري ذاتي.

فالعامل الأول ارتبط برغبتنا العلمية في التحقيق في هذه الظاهرة المعرفية؛ أي تداخل المعارف؛ فلقد أنجزنا في رحلتنا العلمية بحثًا عن أبي حيان التوحيدي ناقدًا، فاكتشفنا فيه عالمًا موسوعيًّا مُلِمًّا بقطاعات معرفية كثيرة؛ كاللغة، والمنطق، والفلسفة، والأخلاق، والاجتماع، والكلام، والترجمة، واستطاع أن يصهر هذه القطاعات جميعًا في إطار مشروع فكري متكامل، أو قل باصطلاح كتابنا «متداخل» وقد ساعدنا هذا البحث علىٰ الانفتاح علىٰ كتب التراث في ما يتعلق بالتراجم والطبقات والرجال، وكتب تصنيف العلوم وإحصائها وترتيبها، فلاحظنا هذا الطابع التداخلي للمعرفة العربية الإسلامية، وكذا الطابع الموسوعي لعلماء العرب والمسلمين، حتىٰ لا تكاد تجد عالمًا متخصصًا في مجال واحد إلا نادرًا، بل تجد عالمًا موسوعيًّا ملمًّا بتخصصات كثيرة، يستثمرها ممتزجة في بحثه وتصنيفه، هذا ما عمَّق عندنا السؤال حول هذه الظاهرة، كيف تتداخل هذه المعارف؟ وما حدود هذا التداخل؟ وهل يمكن الحديث عن وعي نظري بهذه الظاهرة؟ وغيرها من الأسئلة.

ولمَّا كان مجال اشتغالنا هو الدراسات الثقافية النقدية والبلاغية، فقد وجدنا هذا المجال فضاءً مناسبًا لتداخل معارف عدة، حتىٰ تكاد تنمحي صفة النقد والأدب والبلاغة، إلا علىٰ جهة التوسيع في دلالاتها.

ووجدنا في بحثنا عن أبي حيان التوحيدي أنه كان صاحب وعيٍ حادٍّ بظاهرة تداخل المعارف، سواءٌ كان تداخلًا داخليًّا أو خارجيًّا، وقد ظهر وعيه في التعامل مع المصطلحات الفلسفية المنقولة، التي كان يمارس عليها نقدًا تداوليًّا لاختبار كفاياتها ودلالاتها.

أما **العامل الثاني**، فكان لرغبةٍ ذاتية في بحث ظاهرة التخصص التي تضايق الباحث الطموح إلىٰ ولوج حقول معرفية متعددة، وعدم الانطواء داخل تخصص ضيق بعينه، وهذه الظاهرة وبرغم مبرراتها العلمية والواقعية، فإنها لا تصلح لتكون بديلًا عن ظاهرة تداخل المعارف، وكما سيظهر هذا الكتاب فإنَّ ظاهرة تداخل المعارف هي -بنظرنا- سر الإبداع الإنساني في شتىٰ الميادين، كما أنَّ عطاء المعرفة العربية والإسلامية اليوم، خاصة في شقها المسمىٰ «العلوم الشرعية» و«الدراسات الثقافية، والأدبية» تعاني من الجمود؛ لانغلاقها داخل حدود ضيقة، وتحولها إلىٰ أنساق اعتقادية مغلقة، وبث الحيوية فيها يقتضي انفتاحها علىٰ الحقول المعرفية المجاورة أو البعيدة، خاصة علىٰ العلوم الإنسانية، والحال أنَّ الانفتاح علىٰ هذه العلوم يكسب العلوم الإسلامية -شرعية أو أدبية- إمكانات استشكالية، وأخرىٰ استدلالية لا تضاهىٰ؛ فالكتاب الذي نقدمه لا يدعي لنفسه الانفصال عن الهموم المعرفية والفكرية المعاصرة، بل يعتبر نفسه أداة في مشروع التجدد الحضاري والقومي لأمتنا.

وقد حاولنا في هذا الكتاب أيضًا تجميع عناصر هذه الظاهرة في المعرفة العربية الإسلامية القديمة، واخترنا لذلك علمين بارزين، في موقفين شبه متناقضين من الظاهرة، هما: **الغزالي، وابن تيمية**، وحاولنا عرض أفكارهما بمنهج نقدي مقارن، بما يسمح بإبراز المعالم النظرية، والتصورية لهذه الظاهرة في وعي علماء

العرب والمسلمين، وبما يشجع علىٰ اقتحام هذا المبحث المعرفي الجديد، والتخلص من هواجس التخصص الضيق، المعيقة للإبداع الإنساني.

محمد هُمام

أيت ملول،

أكَادير - المغرب